الخسارة الحق

بقلم الدكتور جورج طعمه

بين المسرحيات التي وضعها الكاتب الاميركي « يوجين اونيل » مسرحية عنوانها « رجل الثلج يأتي » وهي رواية رمزية لها تفسيرات وتأويلات شتى لغموضها وصعوبة فهمها . ولقد شهدتها مرة تمثل على مسرح في مدينة اميركية . أذكر انني تعبت من مشاهدتها ، وضقت ذرعاً بها ، ووجدتها طويلة بطيئة مملة تحيط الذهن بقيد لا يستطيع الافلات منه . وتمنيت لو استطعت أن لا أتابع المشاهدة لولا لياقة اجتماعية ارغمتني على البقاء .

كانت هذه الرواية تمثل جماعة من عمال المناجم يعيشون في قرية من تلك القرى التي تتشابك سحب دخان المعامل فوقها باستمرار، فتخلق جواً من الكراهية والكآبة . وتدور حوادث الرواية كلها في حانة من تلك القرية يتردد اليها نفر من هؤلاء العمال التعساء ، معظمهم جاوز العقد الخامس من عمره ، جمعتهم مشاكل الحياة ومصاعبها ، فكنت تراهم منتشرين في نواحي تلك الحانة المظلمة ، التي قضوا شطراً طويلاً من حياتهم فيها ، قدر ما قضوا منها في مناجم الفحم ، يتحدثون ويتحدثون . . وكان حديثهم غالباً ما يدور حول بؤس حياتهم وضيق أفقها وتبرمهم بعيشهم وضياع الآمال والزمن — . . هذا الزمن الذي يذهب ولا يعود . . وتمر سنة بعد سنة وافراد هذه الجماعة يعودون للحانة ذاتها . ويظلم الليل وكأنهم سجناء حلكته وادلهامه ، يحدقون في الافق البعيد . . وينتظرون حدثاً غريباً اواعجوبة خارقة تفك قيودهم وتطلقهم من المنجم والحانة التي يذهبون اليها وكأنهم مخدرون . . والتي التبس فيها ظلام الليل بعتمة الايام الفاحمة، فلا يدرون كيف تتداول ايام حياتهم . . ولكنهم يحدقون ويطيلون التحديق . . في الافق البعيد الضائع ويغذون حياتهم بأمل قد يتحقق يوماً .

واخيراً تقع الاعجوبة الخارقة فتطل الشمس بنورها الساطع وينفتح باب الحانة على الذين ارغموا انفسهم على السجن فيها ، وتتاح لهم فرصة الخروج واحداً بعد واحد . فلا يكاد احدهم يخرج حتى يعود مسرعاً للمقهى الذي خرج منه وكأنه مصعوق، لان عينيه لا تستطيعان ان تتحملا نور الشمس بعد ان اعتادت الظلمة ، وقدميه لا تقدران على المسير بعد ان تعودتا الجلوس الدائم او الوقوف في تلك الحانة. وتتكرر التجربة بالنسبة لكل واحد منهم ويحاول الخروج ثم يعود الجميع مرتدين خائبين .

وهكذا جاءهم الزمن بالفرصة التي ترقبوها سنين طويلة، يحلمون بها ليلة بعد ليلة . . وها اليوم يأتي فإذا اول خطوة تكذب جميع ما حلموا به وتشوقوا لادراكه . وكانت المأساة في حياة هؤلاء التي يترك لخيال المشاهد وفكره ان يصل الى نتيجتها المنطقية هي فقدان الارادة في هذه الجماعة ، إرادة الحياة والكفاح والنضال بعد ان تعودوا سنين طويلة من حياة جامدة لا فعل فيها ولا عمل مثمراً يربطهم ارتباطاً عضوياً بالحياة الطبيعية التي يحياها جميع الناس، بعد ان طابت لهم حياة مهلهلة على غير شعور وإرادة منهم — فاذا هي حركات جلوس ووقوف وثرثرة لا طائل تحتها . حتى الامل الغالي الذي تنسجه النفس بخيوط من نور يصبح هباء منثوراً أمام حياة خاملة جامدة . واذا كانت ثمة حقيقة نفسية تستنتج من هذا الوضع فهو ان المرء لا يستطيع ان يتلاعب بحياته . والمجتمع لا يستطيع ان يتصرف بحياة الفرد فيه فيصيغها تارة على شكل وتارة على شكل آخر . بل ان نوع الحياة التي يحياها المرء تفرض عليه نوعاً معيناً من الخلق والسلوك والتصرف يجد ذاته سجيناً فيه، حتى حين لا يظن ان الامر كذلك. وإلا فما معنى ان تحقق الحياة أمنية غالية لانسان تمنى تحقيقها طيلة حياته حتى إذا بلغ قطافها يديه وجد نفسه مشلولاً وإرادته مبتورة ويديه لا تستطيعان قطف الثمار ؟

وينسدل الستار على جماعة الحانة المظلمة وكأنما باب القبر قد أقفل على جماعة احياء ينتظرون الموت . .

*

تذكرت هذه المسرحية وتذكرتها بمرارة قبل ايام وانا استعرض ناحية محزنة مؤلمة من واقع حياتنا العربية . فلم تعد تلك المسرحية رمزية كما شهدتها اول مرة . . بل اصبحت قصة واقعية تنبض بالحياة : الحياة التي نحياها نحن ، ويحياها عدد غير قليل من أفراد المجتمع العربي .

لقد أتيح لي ان أطلع على نواح من حياة اللاجئين العرب لم يتح لي ان أعرفها او ان أطلع عليها من قبل . . فقد روى لي صديق يعنى مباشرة بشؤون اللاجئين ان نفراً منهم عرضت عليهم اراض لحرثها وزراعتها والاستفادة منها وبناء بيوت يسكنونها ويستعيضون عن سكنى الخيام الرثة وشقاء الحياة فيها وبكلمة

موجزة ان يعيش اللاجئون الحياة الطبيعية المعقولة التي يعيشها جميع الناس بما فيها من جهد وعناء وفرح وكفاح .

ولم يكن القصد من العرض الذي أشرت اليه ان ينسى اللاجئون بلادهم وقراهم وضياعهم وفلسطين ، ولكن أن يتأهبوا ويستعدوا وان يكونوا على الحدود كما توصل اليهود ان يكونوا على الحدود ، ان تكون قراهم قلاعاً ، وسهولهم مراكز للتدرب على القتال ، وفلاحوهم محاربين ونساؤهم وبناتهم محاربات مع الجيش . وأن يكون اللاجئون رجالاً اقوياء ، يبنون جيلاً قوياً شديداً يهيء نفسه للعودة والرجوع والثأر . وعوضاً عن ان يكونوا عالة على جسم المجتمع العربي أو نقاطه الضعيفة أو الحلقات المهلهلة فيه ، ان يصبحوا على العكس رماحه البارزة والدافع للعمل ، والذكرى القوية الحافزة للبقاء والتي تنشد بقاء حياً . ولكنهم ابوا ورفضوا وآثروا ان يستمروا على عيش الكفاف يتناولون القليل مما تجود به وكالة الاغاثة وهم مقتنعون ...

تساءلت عند هذا الحد من حديث صديقي : ترى هل قتلت ست سنين من حياة البؤس والتشرد والاكتفاء بالقليل والجمود عن العمل ارادة الكفاح والنضال في اللاجيء العربي كما حدث لسكان الحانة في مسرحية «رجل الثلج» ؟ قد لا يمثل هذا الوضع جميع اللاجئين العرب ولكنني اخشى ان يمثل قسماً كبيراً منهم . وهنا تنطبق الحقيقة النفسية التي اشرت اليها قبل قليل وهي ان نوع الحياة التي يحياها المرء تفرض عليه نوعاً من الخلق والسلوك والتصرف يجد نفسه سجيناً فيه حين لا يظن الأمر كذلك . فليس بوسعك ان تقتل ارادة الانسان اليوم لتحييها غداً . وان تشل إرادة الكفاح والنضال خلال خمس أو ست سنين لتبعثها حية في نهار أو ليلة . وقد يتلاعب المرء بأمور كثيرة ولكنه لا يستطيع ان يتلاعب بحياته كأنها طينة تتلوى بين اصابعه ليخرج منها الشكل الذي يريد حين يريد . وغداة الخطب ان يتوقع شكلاً جميلاً فتخرج بداه ما انعكس في نفسه شكلاً قذراً بشعاً ممسوخاً . ويحاول حينئذ ان يخرج من البشاعة — هذه البشاعة التي فرضها على حياته وفرضتها حياته عليه — فيجد نفسه عاجزاً عن ذلك .

من نتائج المآسي في التاريخ ان تعزل الناس الى فرقتين أو تدفع بهم الى طرفين متقابلين : فإما قوم يحملون ثقل المأساة ليصبحوا ابطالاً . وإما قوم يرزحون تحت العبء ليصبحوا ركاماً . الفريق الاول يمثل إرادة الحياة والكفاح والخير ويلبي نداء الحياة فيه . والفريق الثاني يمثل إرادة الفناء والشر وتحطيم الحياة ويصم اذنيه لندائها .

واذا اردنا مجابهة الحقيقة دون خوف او تهرب او مواربة ، وتساءلنا هل كانت مأساة فلسطين في انتزاع ارض من اصحابها الشرعيين وتسليمها لشرّد الافاق بمساعدة الاستعمار ؟ وهل كانت النكبة في ضياع الاملاك والحقوق المشروعة ؟ وهل هي في الجرائم المنكرة البشعة التي ارتكبها ويرتكبها الصهيونيون على مرأى العالم المتحضر والتي ينفر منها كل ضمير حي ؟ وهل هي في تشريد مليون لاجيء عربي ؟

والجواب ان الخسارة في كل ذلك دون ريب او تردد . ولكنها ايضاً في اكثر من ذلك . الخسارة كل الخسارة انها خلقت في الجسم العربي ما يقرب من مليون لاجيء مشرد فقدوا بعد الفقر والجوع والاتكال ارادة الحياة والنضال . ان الصهيونية والدول التي تشد ازرها لتصفق لهذه النتيجة قدر ما تصفق لخسارة فلسطين ، لانها ذروة الربح لهم . وانه لما يحز في النفس حقاً ان يساعد العرب انفسهم ، على غير معرفة وعن طيب نية ، على استمرار مثل هذا الوضع وبالتالي وبصورة غير مباشرة على تنفيذ رغبة الصهيونية المجرمة في ان يظل وضع اللاجيء على حاله وان تستمر ارادته ارادة فناء وتلاش واضمحلال .

ترى أليست هذه هي الخسارة الحق ؟

دمشق — جورج طعمه

كنوز القصص الإنساني العالمي

سلسلة جديدة تعرّف القارئ العربي إلى روائع الآثار القصصية العالمية ذات النزعة الإنسانية

لاختيارها ونقلها إلى العربية

منير البعلبكي

صدر منها :		ق.ل
١.	كوخ العم توم (الطبعة الثانية)	لهريت ستاو ٢٠٠
٢.	أسرة آرتامونوف (الاول)	لمكسيم غوركي ٣٠٠
٣.	اسرة آرتامونوف (الثاني)	لمكسيم غوركي ٢٥٠
٤.	المواطن توم بين (الاول)	لهاوارد فاست ١٥٠
٥.	المواطن توم بين (الثاني)	لهاوارد فاست ٢٠٠
٦.	ستة وعشرون رجلاً وفتاة واحدة	لمكسيم غوركي ١٠٠

دار العلم للملايين